الفصل السابع

علم الاجتماع الحضرى (*)

لقد كان من النادر استخدام كلمة « حضرى » فى اللغة الانجليزية urban فيما قبل القرن التاسع عشر • ولقد تضمن قاموس أوكسفورد المختصر تعريفا لها بانها « كل ما يتصل بالمدن أو حياة المدينة » • وهى مشتقة من الكلمة اللاتينية «Urbs» • وهى اصطلاح كان الرومان يستخدمونه للدلالة على المدنية ، وبخاصة مدينة روما •

ونظرا لأن كلمة «علم الاجتماع» ذاتها كثيرا ما تستخدم فى مواقف شديدة التنوع ومازال يحيط بها الغموض فى استخداماتها اللغوية بسبب حداثتها ، كما أنها لم تحظ بعد بالموافقة الكاملة على معنى محدد لها من قبل السوسيولوجيين ، لذلك سوف نلتزم هنا بتعريف محدد نلزم انفسنا به على طول هذا العمل • اذ أننا سوف نعتبر علم الاجتماع أساسا ذلك العلم الذى يعنى بالبناء الاجتماعى والعلاقات الاجتماعية • وأن علم الاجتماع الحضرى هو علم اجتماع الحياة الحضرية ، أى دراسة الجماعات والعلاقات الاجتماعية فى ظروف وأوضاع اجتماعية حضرية •

وعلى الرغم من أن دراسة الناس فى المدن والمراكز الحضرية هى السمة الهامة التى تميز علم الاجتماع الحضرى ، الا انه ليس من الحكمة أن يقصر هذا العلم موضوعه على دراسة المدن والمراكز الحضرية فحسب • ولقد ثبت انه

(*) هذا الفصل مترجم من المصدر التالى :ـ

Hardd E. Nottridge, The Sociology of urban Living, Routledge and Kegan Paul, London ané Boston, 1972, pp. 1—16.

من الصعوبة بمكان التوصل الى تعريف سوسيولوجى خالص للمدينة • وأحد أسباب هذه الصعوبة هى تلك الفروق الهائلة بين البلدة (Town)* والمدينة (City) ، او بين المركز الحضرى ، وبين المدينة سواء كنا ندرس المدن المعاصرة ، أو نستعرض المدن التى كانت قائمة فى الماضى • وتتباين المراكز الحضرية من حيث الحجم ، والكثافة السكانية ، والمظهر العام ، وأسباب ظهورها وتطورها كما تتباين فى علاقتها بالأماكن الأخرى ، الى غير ذلك من صور التباين • وهى ترتبط أوثق الارتباط بالمجتمع الذى نشأت وتطورت فيه • ولذلك يصبح من المستحيل أن نجد نمطا حضريا واحدا ينطبق فى كل الأحوال ، فينطبق مثلا على المراكز الحضرية الجبلية المنعزلة فى أمريكا اللاتينية والتى تتكون من ألفين من السكان ، كما ينطبق على المراكز الحضرية الصناعية الضخمة التى تقع فى وسط انجلترا وتتخذ شكل المجتمع الحضرى Conurbation حيث تمتد المدينة الى حد أن تتصل بمدينة مجاورة وتكون كلها مدينة ضخمة (**) •

ومن المشكلات الأخرى الخاصة بالتعريف ، تلك التى ترتبط بالحدود • اذ من الممكن أن نعثر عرضا على بعض الشواهد التاريخية لمدن كانت الأسوار التى تضرب حولها تعتبر حدودا تفصل السكان الحضريين عن السكان الريفيين • وكان الحضرى فى بعض مدن ألمانيا فى العصور الوسطى يقول بتفاخر « ان جو المدينة يشعر الانسان بالحرية » ، اذ كان الحضريون فى ذلك الوقت يتمتعون بقدر من الحرية أكبر مما يتمتع به غير الحضريين ، نظرا لأن الأولين كانوا يمتلكون قدرا أكبر من الحقوق ، ولو أن ذلك لا يمكن تعميمه حيث لم يكن يمثل النمط الشائع • وفى كثير من البلدان المتحضرة فى عالم اليوم ، يصعب علينا أن نقيم الدليل على وجود فروق سوسيولوجية محددة بين الريف والحضر قائمة على أساس أماكن تمركز السكان فقط • ولقد وجد أحد السوسيولوجيين الأمريكيين أن هناك من « القرويين » من

(*) سوف تأتى ترجمتنا لكلمة (Town) على انها « مركز حضرى » وذلك على امتداد هذا الفصل . (المترجمة) .

(**) كالقاهرة الكبرى على سبيل المثال التى تمثل مجتمعا حضريا يجمع مدن القاهرة والجيزة وشبرا وحلوان ... . . الخ .

يقيمون فى وسط المدينة الصناعية الكبرى المزدحمة بالسكان (١) • أولئك هم المهاجرون الذين وفدوا الى المدينة وهم يحملون طريقة ريفية فى الحياة ، وبناءا اجتماعيا يختلف عن مثيله لدى السكان الحضريين المحيطين بهم • وهم على الرغم من أنهم يكسبون عيشهم من اقامتهم بالمدينة ، الا انهم يظلوا قرويين • وعلينا أن نذكر فى هذا الصدد النصيحة التى قالها أحد الريفيين القادمين من الشمال عن يوركشير بأنها « ليست مجرد منطقة ، ولكنها حالة عقلية » •

ولقد دأب بعض السوسيولوجيين فى مجال علم الاجتماع الحضرى على تعريف المدينة على أساس المحك السكانى ، أى حجم السكان ، وبخاصة عندما يتناولون بالدراسة عملية التحضر فى المناطق الواقعة فى اجزاء من آسيا أو أمريكا اللاتينية • اذ أن هذه المناطق تشهد مدنا ومراكز حضرية آخذة فى التحضر السريع • ولقد قرر بريز بأنه من المناسب أن يطلق اصطلاح « حضرى » على الوحدات العمرانية التى تضم عشرين ألفا من السكان أو اكثر ، وذلك للتمييز بينها وبين الوحدات العمرانية الريفية (٢) وعلى كل حال فان ذلك التمييز على أساس عدد السكان يطرح عددا من التساؤلات • من ذلك مثلا ، ما اذا كان الذين يقيمون فى وحدات عمرانية يقل عدد سكانها عن عشرين ألفا يختلفون من الناحية السوسيولوجية عمن يقيمون فى وحدات أخرى ، وهل يمكن أن نطلق على هؤلاء اسم « ريفيين » ، وهل نستطيع أن نذهب الى أن هناك فروقا اجتماعية بينهم وبين من يقيمون فى وحدات كبرى أو وحدات صغرى ؟ ان المحك السكانى يمكن أن يكون مفيدا فى حالة دراسة سرعة التحضر فى مناطق معينة ، الا أنه لا يصلح لتقديم نظرية رحبه وقابلة للتطبيق فى كل مكان •

---

(1) Gans H., The Urban Villagers, New York and London, 1962.

(١) انظر كذلك دراسة ابو الغد عن « تكييف المهاجرين الريفيين بالمدينة • دراسة حالة لمدينة القاهرة » التى نقدم لها ترجمة كاملة في الفصل الثانى عشر من هذا الكتاب •

(2) Breese, G., (ed.), The City in Newly Developing countries, prentice-Hall, New York, 1969.

ان افتتان بعض كبار السوسيولوجيين المهتمين بالدراسات الحضرية بالمدينة يبدو فى ولعهم بالتعميمات الفضفاضة التى يطلقونها فى هذا الصدد • ومن ثم فاننا نجد كثيرا من المصطلحات التى تتردد فى هذا الشأن « كالمواطن الحضرى » ، و « ساكن المدينة » ، و « الانسان الحضرى » ، و « الطريقة الحضرية فى الحياة » و « النمط الحضـــرى » وينبهنا موزر Moser فى دراسته المقارنة لعدد كبير من المراكز الحضرية الانجليزية الى ضرورة الكف عن استخدام هذه المصطلحات العامة ما لم نكن على ستعداد فى نفس الوقت لقبول صور التباين الموجودة بين المراكز الحضرية • (٢)

***

اولا : أهمية علم الاجتماع الحضرى

ظلت الزيادة السكانية فى العالم لفترة طويلة وحتى القرن السابع عشر تتسم بالبطء النسبى ، كما كانت معدلات الزيادة السكانية ثابتة تقريبـا، ثم أخذت الزيادة السكانية بعد ذلك فى الظهور بدرجة كبيرة • وهو ما نعبر عنه فى الوقت الحاضر بالانفجار السكانى • وتوضح بعض الحســابات السكانية فى الوقت الحاضر أنه من المحتمل ان يتضاعف عدد سكان العالم حتى سنة ٢٠٠٠ • ويتوازى مع هذه الزيادة السكانية بشكل عام ، ما يسمى « بالانفجار الحضرى » ، حيث الزيادة الرهيبة فى عدد السكان المقيمين بالمدن وفى الوقت الحاضر يقيم ٣٧٠ مليون من السكان فى مراكز حضرية كـــبرى يبلغ حجم كل منها مليون نسمة فاكثر • واذا استمر الانفجار الحضرى على هذا النحو ، فمن المتوقع أن يبلغ عدد السكان فى هذه المراكز الحضرية ٢٦٠٠ مليون نسمة فى نهاية هذا القرن • وعلى ذلك فسوف تمثل هذه النسبة أكبر قطاع من السكان فى العالم • وبطبيعة الحال فان هذا الانفجار الحضـــرى يستتبعه بالضرورة زيادة كمية فى المطالب والاحتياجات الطبيعية والماديـة والتغييرات فى كثير من المجالات كالاسكان والتشييد ، والطرق ، والمواصلات ، والخدمات المختلفة • واذا كنا الآن بصدد دراسة الحياة الاجتماعية فى تـلك

---

(٣) Moser, C.A. and Scott, W., British Towns, Oliver, 1961.

المناطق الحضرية الكبرى ، فلنا أن نتصور ما سوف ينطوى عليه المستقبل من تكثيف للمشكلات الاجتماعية الحضرية ٠

ان الأمر على هذا النمو سوف ينطوى على مزيد من التغيرات الاجتماعية الضخمة ٠ فسوف يستحدث الانسان فى هذه المناطق الحضرية الكبيرة أشكالا جديدة من الحياة الاجتماعية ٠ ويتعين علينا أن نتنبه كما تذكرنا اليزابيث بفايل (pfeil) بذلك ، الى أن حياة الانسان فى المدن والمراكز الحضرية هى ظاهرة اجتماعية حديثة نسبيا ، ولا تتعدى كونها فترة قصيرة من حياة الانسان وتاريخه على الأرض ٠ انها تمثل مرحلة من التطور الثقافى الـــذى بلغه الانسان أخيرا ولن يكون بالقطع آخر مراحل ذلك التطور (٤) ٠

ولقد بدأنا ندرك بعض الدلالات التى تنطوى عليها عملية التحضر ، وذلك بملاحظة الأسلوب الذى تتم به تلك العملية وما ينجم عنها فى بعض الأجزاء المتخلفة من العالم ٠ وتحدث عملية التحضر بسرعة مروعة ، ويتطلب ذلـك ضرورة التوافق الاجتماعى للسكان الذين يتعين عليهم أن يتسموا بالمرونة ازاء البيئة الحضرية الجديدة ٠ ان ما يتعين علينا دراسته هو الوقوف على الآثار المفاجئة للحياة الحضرية على الفلاح الذى كان مرتبطا بالأرض ومعتادا على الحياة الاجتماعية المنعزلة فى القرية ، والتوترات التى تصيب البدوى المتجول الذى ينتقل من فقر الحياة القبلية الصحراوية الى الحياة المزدحمة والمعقدة فى شوارع المدينة (٥) ٠ فمثل هذه الموضوعات التى تفرض نفسها اليوم وكذلك فى المستقبل ، وانما تقع فى دائرة اهتمام المتخصصين فى علم الاجتماع الحضرى ٠

ويمكن أن يكون لعلم الاجتماع الحضرى أهميته من ناحية أخـــرى ٠ اذ أن الدراسات الحضرية ، وفقا لما يذهب اليه رايسمان (١٩٦٥) ، ذات

---

(٤) Pfeil, E., Cross Stadtforschung, Walter Dorn Verlag, Bremen-Horn, 1950.

(٥) De Vries, E., Man in Rapid Social change, S.C.M. Press 1961.

اهمية أساسية لعلم الاجتماع نفسه • ذلك أن دراسة عملية التحضر يمكن أن تخدم دراسة التغير فى أى مجتمع من المجتمعات ، هذا الى جانب أن دراسة البناء والتنظيم الاجتماعى الذى يقوم أساسا على الحياة الحضرية يمكن أن يفيد فى فهم البناء والتنظيم الاجتماعى القائم فى أى مجتمع ، حتى ولو لم يكن مجتمعا حضريا (٦) • ويضيف رايسمان أيضا أن هناك بعض الموضوعات التى لا يمكن دراستها دراسة حقيقية الا من خلال مجتمع حضرى كالطبقات الاجتماعية ، والبيروقراطية • ويمكن أن نعتبر المدن والمراكز الحضرية بمثابة المعمل الذى يصلح لدراسة عدد من ملامح المجتمع • من ذلك مثلا ، الهجرة الى المراكز الحضرية ، والهجرة الريفية ـ الحضرية ، والهجرة الحضرية ـ الحضرية ومن المهم أن ندرس نوعية المهاجرين ، والدوافع وراء هجرتهم ، وهل ترجع هذه الهجرة الى الضغوط التى يتعرضون لها من جراء عوامل معينة كجاذبيـــة المراكز الحضرية مثلا • ومن المهم أيضا التعـــرف على الأوضـــاع الطبقية للمهاجرين ، وما اذا كانت هذه الأوضاع الطبقية تتغير بسبب الهجرة ، كالتغيرات التى تحدث فى الأنماط الأسرية • ومن النقاط الهامة فى موضوعنا أيضا ، التعرف على العلاقات الاجتماعية بين المهاجر كوافـــد حديث الى المدينة وبين غيره من الحاضرين المقيمين بالمدينة منذ البداية (٧) •

ومن النتائج الحديثة القيمة التى ترتبت على نمـــو عـــلم الاجتماع الحضرى ، الالتفات الى دراسة البناء والتنظيم الاجتماعى على نطاق واسع فى كثير من دول العالم • ولقد شهدت بريطانيا العظمى البدايات الرائدة من الأعمال فى هذا المجال ، وكذلك الولايات المتحدة وأوروبا الغربية • فلقد لقيت النظريات المبكرة فى علم الاجتماع الحضرى حظها من التطور والنمو فى تلك البلدان • ولعل ذلك وراء العيوب الحادة التى ظهرت بشكل جلى فى الســنوات الأخيرة • ذلك أن الولايات المتحدة وأوروبا الغربية كانت لهما أوضاعهما الحضرية الخاصة بهما • فلقد كان شكل عملية التحضر فيهما ، وكـــذلك

---

(٦) Reissman, L., «Urbanism and Urbanisation», in : Social Sciences Survey, Penguin, 1965.

(٧) انظر الفصل العاشر من هذا الكتاب عن مكان المدينة •

تاريخهما الاجتماعى ، وبنائهما الاجتماعى من نوع خاص يرتبط بنوع معين من النمو الصناعى ٠

ولذلك كان من المحتم أن يخلق التراث السوسيولوجى الحضرى الأمريكى والأوروبى والبريطانى نظرة معينة تثير عديدا من المشكلات عند تطبيق هذا التراث فى أجزاء أخرى من العالم ٠ فلم ينجح هذا التراث الغربى فى تقديم الاطار المناسب لفهم أوضاع ومشكلات التحضر فى البلاد النامية ٠ فنحن نعلم الآن أن ظروف الولايات المتحدة وأوروبا الغربية ليست بالضرورة هى الأساس الذى تقوم عليه المشكلات الحضرية فى أجزاء أخرى من العالم ٠ ولقد كتب « سفانى » (Sovani) حول عملية التحضر فى الهند ، يقول :

« هل تختلف الأوضاع الاجتماعية الحضرية عن الأوضاع الاجتماعية الريفية فى الهند ؟ ، واذا كان الأمر كذلك ، فهل تماثل الفروق بينهما ما هو موجود فى الغرب ؟٠٠٠ان عملية التحضر ذاتها ظاهرة ثقافية أساسا ٠ وليس من المنطقى أن نتوقع أن تكون جوانب النمو الاجتماعى فى البلدان النامية هى بعينها نمط النمو الاجتماعى الذى شهدته المدن الغربية » (٨) ٠

ولقد بات واضحا أن المعايير التى تستخدم فى الولايات المتحدة أو بريطانيا لا تكون مفيدة عندما يجرى تطبيقها فى مدينة آسيوية أو مركز حضرى فى أمريكا اللاتينية ولكى نوسع من نظرتنا الى البناء الاجتماعى والتنظيم الاجتماعى ، ولكى نجعل تعميماتنا بشأنهما أكثر دقة وأكثر قابلية للتطبيق على نطاق واسع ، فاننا فى حاجة الى بناء نظرية تقوم على عدد من الدراسات المقارنة فى كثير من البلدان المختلفة ٠ وقد يمدنا علم الاجتماع الحضرى المقارن ، وهو فرع لا يزال فى طفولته المبكرة ، بمفهومات نظرية حديثة ، يمكن أن تطبق بدورها فى اطار نظرية سوسيولوجية حضرية فى مختلف بلاد العالم ٠٠

---

(٨) انظر المرجع التالى :

Sovani, N.U., Urbanization and Urban India, Asia Publishing House, 1966.

ثانيا : علم الاجتماع الحضرى والدراسات الحضرية الأخرى

ان دراسة المدن والمراكز الحضرية والمناطق المتاخمة لها ، تتطلب اسهام عدد من فروع العلم المتخصصة • فالباحث فى **مجال الجغرافيا الحضرية** أو « جغرافية المدن » يهتم بمورفولوجية المدينة من حيث تكوينها الطبيعى ، وشكلها العام • وأنماطها المختلفة • وقد يعنى بدراسة النمو الجغرافى للوحدات الحضرية ، ومدى تأثر ذلك أو ارتباطه بعوامل معينة كالبحار ، أو البحيرات ، أو الأنهار ، او الغابات ، أو التلال ، أو الطقس • وهو يضع الخطوط العريضة لاستخدام الأرض فى مختلف الأغراض كالاسكان ، والخدمات العامة ، والصناعة ، والطرق ، والترويح ، بالاضافة الى الوقوف على علاقة كل تلك العوامل بالسكان فى المدينة • والباحث فى **مجال الديموجرافيا** يهتم أساسا بالاحصاءات السكانية الخاصة بالمنطقة ، وتوزيع السكان وفقا لفئات العمر ، والنوع ، والميلاد ، ومعدلات الزواج ، ومعدلات الوفاة ، الى غير ذلك من الاحصاءات الحيوية • وقد يقارن بين هذه المتغيرات مع ربطها بعضها ببعض ، الى جانب دراسته لتوزيع السكان • وقد يعانى من بعض القيود ، اذ أن هناك أجزاء من العالم لا يتوفر بشأنها احصاءات دقيقة ، ويصعب الحصول على مثل هذه الاحصاءات • وفى أجزاء أخرى ، كبعض المدن السويدية، يمكنه الحصول على مادة احصائية جاهزة دوما • ويهتم **الباحث الاقتصادى** بأوجه النشاط التجارى والصناعى فى المدينة ، ويجرى حول ذلك دراسات تتجاوز حدود المنطقة لتشمل الأسواق فيما وراء البحار • ويهتم **خبير الاسكان** بالنمط المعمارى المألوف وتكاليفها وتوزيعها • وهناك جوانب أخرى هامه من حياة المدينة يهتم بدراستها المهندس المعمارى ، وخبير المرور ، وخبير التخطيط الريفى والحضرى ، أولئك الذين لا يمكن الاستغناء عن بحوثهم ودراساتهم عند اعادة تخطيط المنطقة • وبهذه المناسبة فلا يفوتنا أن نذكر « أخصائى التنمية الاجتماعية » ، الذى يهتم بامور الرعاية الاجتماعية لأبناء المدينة ، وكذلك المؤرخ الحضرى ••• الخ •

وفى غمرة حديثنا عن الدراسات الحضرية ، يتعين علينا أن نضيف أنه من الصعب أن نحدد على وجه الدقة وظيفة علم الاجتماع الحضرى ، أو نبين بوضوح علاقته بفروع العلم الأخرى • فهناك فروع أخرى تقع على

حدود علم الاجتماع الحضرى وتتصل به على نحو معين • ولقد كان بعض الكتاب الأوائل فى علم الاجتماع الحضرى يستعيرون مادة كتاباتهم من بعض فروع العلم لأخرى ، أو يستخدمون أساليب ومناهج هذه الفروع اذا كانت تكشف عن فائدة فى مجال الدراسات الحضرية •

وتمثل دراسة زورباخ نموذجا لذلك النوع من الدراسات فى دراسته الموسومة«ساحل الذهب والحى المتخلف» (The Gold Coast and the slum) فلقد جمع مادة ديموجرافية (عن شيكاغو) حول ظاهرة الانتحار فى فترة معينة • ولقد تضمنت هذه المادة عناوين الأماكن التى وقعت فيها حوادث الانتحار • ثم قام زورباخ برصد أماكن هذه العناوين واظهارها بنقاط سوداء على خريطة كبيرة لشيكاغو • وعندما أنتهى من رصد الأماكن على الخريطة تبين أن هناك تركزا للنقاط السوداء فى شارع « كلارك ستريت » أو بالقرب منه • وبعد ذلك قام زورباخ باجراء مسح للمنطقة الواقعة بين قطاع « ساحل الذهب » حيث الثراء ، وبين قطاع « ايطاليا الصغرى» «Little Italy » ، وهو أحد أحياء المهاجرين • وقد تبين له أن الحى الاخير كان على درجة كبيرة من الفقر وانخفاض المستوى الاقتصادى الاجتماعى ، حيث كان هناك ما يعرف بالمساكن ذات الحجرة الواحدة ، أو المساكن المؤجرة حيث يعيش الأشخاص غير المستقرين ، كما تبين له أيضا أن من يسلم نفسه الى الانتحار يعيش فيما أسماه ميرتون حالة الانسحابية (vetrealism) (٩) • ويلخص لنا زورباخ هذا الوضع قائلا : « انها منطقة لا تعرف تقاليد المجتمع المحلى ولا تحديدا مشتركا للموافقة • وليس هناك رأى عام ، ولا وسائل غير رسمية للضبط الاجتماعى»•

والمعايير التى يمكن أن نطبقها على هذه الفقرة من دراسة زورباخ تعتمد على ما نسميه بالعلاقة الوثيقة بين علم الاجتماع وعلم الجغرافيا • ويمكن أن نتبنى الرأى القائل بأن نظرية الانسحابية لا ترتبط بأى فرع آخر من فروع العلم • كما أنه يمكن لنا أن نأخذ بوجهة النظر القائلة بأن زورباخ كان على صواب حينما ربط بين الجغرافيا والديموجرافيا وعلم

---

(٩) Merton, R. Social Theory and Social Structure, Chicago and London, 1949.

الاجتماع ، وان كان قد وضع العربة امام الحصان • ولنا أن نتساءل عما اذا كان المتخصص فى الجغرافيا الحضرية والديموجرافيا الحضرية قد افادا من زورباخ أكثر مما افاد هو منهما ؟

ولقد حاول بعض المتخصصين فى علم الاجتماع الحضرى أن يحلوا مشكلة العلاقة بين هذه العلوم باقتراح مداخل نظرية مختلفة • ولقد ذهبوا الى أن علم الاجتماع الحضرى لم يحظ بعد بتعريف واضح يؤهله لأن يحتل مكانه كفرع من العلم • ذلك أن مجال اهتمامه متشعب ومعقد • وعلى ذلك ، فان المنهج الصحيح فى دراسته ، على نحو ما يقولون ، يتمثل فى استمداد معطياته من العلوم المختلفة وتجميع هذه المعطيات فى كيان واحد ذى شكل موحد • ويفترض هذا المدخل أن علم الاجتماع الحضرى على هذا النحو أشبه ما يكون بالملك الذى يمارس حقه فى الضبط والتنظيم على الأمراء ، أكثر منة كائنا يقتات على ما يتبقى من الفضلات التى تخلفها العلوم الأخرى • وعلى ذلك فمن المحتمل أن ينطوى الوضع على وجهين للخطورة • اذ أننا يمكن ـ من ناحية ـ أن ننبهر بهذا المدخل الرحب الذى يجعلنا نفقد الرؤية الكلية ، كمن يعجز عن رؤية الغابة من كثرة الأشجار فيها • ومن جهة أخرى ، فقد يغرق الباحث السوسيولوجى الحضرى فى خضم المادة ، والمناهج ، والمبادىء ، التى تنهمر عليه بسخاء من العلوم الأخرى ، بحيث يتوه عن مبادىء حول نظرية سوسيولوجية حضرية • ولقد قدم لنا موريس تحذيرا مفيدا فيما يتعلق بمخاطر التأثر الزائد بالمعطيات المستمدة من العلوم الأخرى (١٠) • فهو يذهب الى أنه قد يكون من المهم ومن الميسور من الناحية الاحصائية ادراك الفروق بين المراكز الحضرية التى يبلغ عدد سكانها عشرة آلاف ، وعشرون ألفا ، وثلاثون ألفا ، وأربعون ألفا من السكان • فقد تنجح البيانات الاحصائية فى تدريج هذه المراكز الحضرية بالنسبة لبعضها البعض • الا أنها لا تنجح بنفس الدرجة فى ابراز التغير الاجتماعى الذى يطرأ على الفئات السكانية فى هذه المراكز الحضرية ، فضلا عن أشكال السلوك الاجتماعى الذى يختلف من مركز الى آخر •

---

(١٠) Morris, R.N., Urban Sociology, Unwin, 1968.

ثالثا : الاصلاح الاجتماعى الحضرى

اذا كان بعض الناس يعتبرون ان المدن هى أنبل عمل صنعته يد الانسان ، فان عليهم فى الوقت نفسه أن يضعوا فى اعتبارهم مظاهر أخرى . واذا رجعنا الى الوراء فاننا نجد جون ايفلين (J. Evelyn) قد عبر فى القرن السابع عشر من شكواه من الدخان والتلوث الذى أصاب المراكز الحضرية فى لندن . وقد أخذت هذه الشكوى تزداد فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر وفى القرن العشرين فى بريطانيا على وجة الخصوص كنتيجة للتغيرات التى طرأت على أساليب الحياة فى ظل النمو الصناعى وتطور المصانع والامر على هذا النحو يختلف عما كان يبدو فى المدن القديمة من شرور ظاهرة ، كالأمراض الناجمة عن انخفاض مستوى الوقاية الصحية التى كانت تزداد تركزا فى حياة المدن . فالمراكز الحضرية تشهد ازدحاما سكانيا لأناس يعيشون معا فى ظروف سيئة . وبعض هؤلاء الساكن قد وفدوا من الريف طلبا للعمل فى الوقت الذى كانت فيه المراكز الحضرية قد أصبحت عاملا من عوامل الجذب (١١) .

ولقد استخدم لويس ممفرد عبارتين يصف فيهما الظروف بالغة السوء فى المراكز الحضرية وهما « صراع الفردوس » ، و « صراع الجحيم (١٢) . فالمساكن المتزاحمة ، فى شوارع رتيبة تبعث على الملل ، والمكتظة بأعداد هائلة من الكائنات البشرية التى تتحمل الازدحام الشديد ، والفقر ، الى جانب الكثير من الأمراض الاجتماعية الأخرى .. كل ذلك موجود بالمدن . ويرى بعض المراقبين أن المرض ، والازدحام الشديد ، والفقر ليست مرعبة فى حقيقتها بقدر ما يترتب عليها من نتائج كالجريمة والانحلال ، والانحطاط الخلقى ، والسلوك غير الاجتماعى ، والانحراف الذى يستشرى فى ظل الحياة الحضرية ، والذى يتخذ صورا وأشكالا شتى مؤلمة . ولقد تناول الكتاب فى كتاباتهم الشرور الحضرية من زوايا عديدة . فقد تحدث زولا Zola عن الأحياء المتخلفة فى باريس ، كما تحدث سنكلير Sinclair عن نفس

---

(١١) تعرض محمد الجوهرى لهذا الموضوع بتفصيل كبير فى الفصل السابق (المترجمة).
Mumford, L., The City in History, Penguin, 1981.

وقد ظهرت لهذا الكتاب الهام ترجمة عربية فى مجلدين نشرتهما مؤسسة فرانكلين بالاشتراك مع وزارة التربية والتعليم المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

الشيء فى شيكاغو • كما تحدث فى نفس الموضوع ديكنز Dickens

وهناك ملاحظون آخرون تحدثوا فى نفس الموضوع ابتداء من توماس تشالمرز Thomas Chalmers الوزير الاسكتلندى الذى تحول الى مفكر اجتماعى ، وأبدى اهتماما شديدا بالقطاعات الفقيرة فى جلاسبو وأدنبرة ، وحتى هنرى مايهيو Henry Mayhew الذى عنى بدراسة الحياة والفقر فى لندن فى الفترة من ١٨٦١ حتى ١٨٦٥ • كما كان هناك أيضا وليام بوث W. Booth الذى دعا الى تكوين جيش الخلاص • ففى كتابه الموسوم « انجلترا المظلومة وطريق الخلاص » الذى نشر عام ١٨٩٠ ، صور شرور الحياة الحضرية واقترح حلولا لها •

ان الفقر فى المناطق الحضرية ، الذى استشعره كثير من المفكرين الاجتماعيين ، لم يكن مقبولا كظاهرة اجتماعية ناجمة عن الحياة الحضرية الا بعد ظهور أول مسحين اجتماعيين علميين تم اجراؤهما حول الاوضاع الحضرية • فقد أجرى « شارلز بوث » عام ١٩٠٢ مسحا لمدينة عظمى (مدينة لندن) ، كما أجرى « راونترى » Rowntree عام ١٩٠١ مسحا لمركز حضرى أصغر وهى مدينة يورك York ، وقد أجريا هذين المسحين وفقا لبحوث علمية دقيقة بذلا فيها عناية كبيرة • وقد انتهيا الى نتائج مزعجة مؤداها أن هناك فى بريطانيا ، وهى واحدة من أغنى بلاد العالم وأكثرها تحضرا ، قطاعا كبيرا من السكان ممن يعيشون ويموتون فى فقر •

لقد كان تحديد الأسباب الاجتماعية للفقر ، أو تحليل الشرور والآثام المرتبطة بالحياة الحضرية على وجه التحديد ، أمرا على درجة من الصعوبة • وكان من الطبيعى أن يحاول المصلحون الاجتماعيون فى القرن التاسع عشر وما بعده بلورة نظرية فى التغير الاجتماعى ترتبط بتحسين أحوال الانسان كما ذهب المصلحون الاجتماعيون الى أن الفقر والشرور الاجتماعية الأخرى قد ظهرت نتيجة نوع من الخطأ فى البيئة الاجتماعية التى تستشرى فيها الجريمة ، والسلوك غير الاجتماعى ، والانحراف ، بالاضافة الى الاعتلال العقلى والجسدى • وبدت الحلول التى اقترحوها حلولا مباشرة وان كانت مكلفة ولكنها فى حدود المعقول • فهم يرون أنه لابد من تغيير البيئة اذا كان لابد من تغيير الانسان والقضاء على الشرور • ويمكن أن يتحقق ذلك بتحسين ظروف الاسكان ، والتعليم ، والصحة • كما أن تحسين الأجور يتيح للعاملين وعائلاتهم أن يعيشوا فى راحة • غير أن ذلك كان يعنى

للمتحمسين من الشباب ـ مثل بياتريس ويب (B. Weez) ـ كما نرى فى مذكراتها ، حلما ذهبيا بجنة على الأرض ٠

غير أن المدخل الذى يستخدمه الباحث الحديث فى علم الاجتماع الحضرى فى تناوله لموضوع الفقر فى المناطق الحضرية ، يتسم بقدر أكبر من التعقيد٠ ويجب أن يكون مفهوما أن الاصلاح الاجتماعى الحضرى ، على نحو ما أشرنا، ليس هو الهدف المبدئى لعلم الاجتماع الحضرى ، وان كان يبدو نتاجا ثانويا لتقدم البحث فى هذا العلم ٠ ولقد درس يونج Young وويلموت Willmott عام ١٩٥٧ البناء الأسرى فى شرق لندن ، ووجدا أن بناء الأسرة يتأثر بانتقال الاسرة الى مسكن جديد (١٣) ٠ ولقد كانت القيمة التى تنطوى عليها هذه الدراسة هى انها لفتت نظر المخطط الحضرى الى أهمية أخذ البناء الأسرى فى الاعتبار عندما يكون بصدد تخطيط المناطق السكنية ٠ وقد يجرى الباحث فى علم الاجتماع الحضرى دراساته القيمة التى يفيد منها المخطط الحضرى ، غير أن ذلك لا يعنى بالضرورة أن الأول خادم للأخير ٠ اننا فى حاجة ماسة الى مدخل رحب للاحظة ظاهرة الفقر الموجودة فى المناطق الحضرية كما يتناولها علم الاجتماع الحضرى ٠ كما اننا فى حاجة الى جهود كالتى بذلها اوسكار لويس O. Lewis فى أمريكا اللاتينية (١٤) ، وكالجهود التى بذلها الباحثون السوسيولوجيون الأوربيون فى قطاعاتهم المتخلفة ، بحيث يتذكرون دائما ما ذكره « مابو جونجى » MabogunJe (١٩٦٨) فى تقريره عن احدى مدن غرب افريقيا ، حيث يقول :

« يمكن أن نقول بحق ان ٧٠ ـ ٨٠٪ من سكان المدن يعيشون حقيقة فى أحياء متخلفة ٠٠ وعلى خلاف الأمر فى الدول المتقدمة ، فان الأحياء المتخلفة [فى المدينة الأفريقية] ليست بالضرورة هى نفس المناطق التى تشهد انحرافا اجتماعيا ، وجريمة ، وانحرافا للأحداث ٠ فالحياة فى الأحياء المتخلفة على درجة من التكامل فى حقيقة الامر ، كما أنها تتسم بالاشباع

---

(١٣) young, M. and Willmott P., Family and Kinship in East London, Routledge and Kegan Poul, 1957.

(١٤) انظر مؤلفيه : ـ

(*) Oscar Lewis, Life in a Mexican Village, Holt, Rinehart and Winston, New York, 1951.

(*) Lewis, O., Lavida, Panther, 1968.

والجفاء فى العلاقات الاجتماعية الانسانية • ونتيجة لذلك فان المساوىء التى تشهدها الاحياء المتخلفة انما تأتى ممن هم خارج هذه الأحياء وليس من سكان تلك الأحياء أنفسهم » (١٥) •

رابعا : النزعة المضادة للحضرية

لقد كان من بين صور النقد التى وجهت الى الحياة الاجتماعية تلك التى تعكس كراهية الحياة فى المدينة على وجه العموم • ووجهة النظر المضادة للحضرية تستمد جذورها من أسباب متعددة ، غير أن السبب الرئيسى يبدو واضحا فى المقارنة بين الوجه القبيح للمراكز الحضرية الصناعية بما فيها من تلوث ، وفقر ، ومرض ، واضطراب وفوضى ، وبين المراكز الحضرية القديمة ، وما تتسم به من جلال وتبجيل ، حيث يعيش الناس (أو على الأقل الأثرياء منهم) فى المراكز الحضرية حياة تحوطها الدعة والاستقرار • ومن الأسباب الأخرى المضادة للحضرية ، ذلك التباين بين حياة الريف وحياة الحضر • ذلك أن المزرعة والقرية تبدو ملاذا للرضا والقناعة المصحوبة بطرق فى الحياة معبرة عن عصور أكثر سعادة • ويبدو أن اتجاه المفكرين نحو المدن فى بريطانيا العظمى يختلف الى حد ما عن الاتجاه المعروف فى مختلف بلاد القارة الأوروبية • اذ تعتبر فى بعض البلاد الاوروبية الأخرى مستودعا للتراث الثقافى ، والمكان الذى ينبغى أن يعيش فيه الانسان ليستمتع بوجوده فى وسط متحضر • أما الريف ، فيما يرى الحضرى ، فيوهم بأنه مكان الحمقى والفقراء ، حيث لا يجد فيه الحضرى أناسا يأنس اليهم •

ولقد كان ظهور المراكز الحضرية الصناعية مصدرا للقلق بالنسبة للطبقات العليا والمتوسطة فى انجلترا فى العهد الفيكتورى • فبغض النظر عن المخاطر المحدقة بالصحة ، وفقدان الأمن ، كانت المراكز الحضرية ينظر اليها على أنها تهديد للنظام المستقر • فالجماهير العريضة من السكان العاملين ، الذين اكتسبوا العديد من المتناقضات ، يظهرون فى شكل عربدة ، وتهديد للأمن ،

---

(١٥) Maborgunje, A.L., Urbanization in University; Nigeria, of Liverpool Press 1968.

ومع ذلك فانهم يظهرون فى شكل متماسك ومتحد ، كما أنهم يظهرون فى شكل مرتعب ، وهكذا كان العنصر البشرى فى تلك البيئة الحضرية يبدو بشكل ينذر بوقوع انفجار أو انهيار اجتماعى ٠

وهكذا كان يبدو أن هناك طريقا واحدا للخلاص ، الا وهو هجر مراكز المدينة والتوجة الى الريف ٠ غير أن هناك من يتحفظون حيال ذلك الرأى من منطلق أن عودة الحضريين من سكان المدن الى الريف سوف يؤدى الى الانهيار الخلقى للريف ، فلقد خلق هؤلاء لكى يقيموا فى المدن ولابد أن يكونوا كذلك ٠

وعندما بدأ الخروج من المدن،فان الأكثر ثراء هم الذين وجدوا فى أنفسهم القدرة على ترك المراكز الحضرية والتحرك صوب الريف ٠ ولو قدر لهم أن يحيوا حياة تتسم بالعزلة النسبية ، فانهم يستطيعون أن يستمتعـــوا بالاتصال الاجتماعى مع الآخرين ممن فى نفس أوضـــاعهم ٠ ويرغب أبناء الطبقات المتوسطة أيضا فى الانتقال الى الريف ، ولكنهم لا يستطيعون التحرك بالقدر الذى يتحرك به الأغنياء ، ذلك أنهم يظلون مرتبطين بالمراكز الحضرية التى يزاولون فيها أعمالهم ، ولذلك اتجه البعض الى انشاء أحياء جديدة داخل المدينة نفسها ، ولكن الحل الذى وجد فيه الكثيرون علاجا للموقف ، كـان الاتجاه الى انشاء بعض الضواحى القريبة من المراكز الحضرية والمتاخمة للريف القريب ٠ وتقع تلك الضواحى على حافة المدن أو المراكز الحضريـــة أو قريبا منها فى بادىء الأمر ، ثم لا يلبث الامتداد العمرانى للمدن أن يجعـل هذه الضواحى تتصل اتصالا وثيقا بها ٠ ويتنقل سكان الضواحى الى المدن أو المراكز الحضرية بواسطة القطار أو الترام ، أو الأوتوبيس ، أو الدراجة ، أو السيارة الخاصة ٠ وباتساع المدن أو المراكز الحضرية ، وازدياد الحركة الخارجية نحو الضواحى ، أصبحت المسافات التى تقطع فى الانتقال داخل المدن ذاتها تزداد طولا باستمرار ، ويظل الناس لفترة طويلة متمسكين بحقيقة مضللة وهى أنهم قد أصبحوا يعيشون فى نطاق الريف ٠ ويعتقد البعـــض أن حركة الخروج الى الضواحى يمكن اعتبارها وسيلة للتفرقة بين الـغنى والفقر ٠ غير أن أحدا لا يمكنه أن يتخذ من ذلك دليلا على تلك المقولة ٠ فقد أصبح أبناء الطبقة المتوسطة العاملة يخرجون أيضا الى الضواحى ٠وخصوصا عندما تستحكم أزمة المساكن داخل المدن ٠

أما أولئك الذين يعارضون مساوىء وآثام المدينة ، ولديهم أفكـــار وتطلعات حول المستقبل ، فقد انقسموا الى قسمين : أما أولهما فان أصحابه يرون أنه بالامكان ايجاد أحياء سكنية حديثة على نمط جديد داخل المدن أو المراكز الحضرية • وأما القسم الثانى فان أصحابه يرون أنه من الأفضل اقامة مراكز حضرية أو مدن أو قرى جديدة تماما على شكل مجتمعات محلية يخطط لها تخطيطا جيدا • ومن أهم دعاة هذا الرأى الأخـير روبرت أوين R. Owen و « تيتوس سولت T. Salt وهما من أصحاب المصانع الاثرياء الذين يبدون اهتماما شديدا بالطبقة العاملة ، ويرون أن التغيير أو التحسين فى البيئة التى يعيش فيها العمال لابد أن يجعلهم يتغيرون الى الأحسن •

ومن المفكرين المتأخرين المعنيين بقضايا المدينة « أبينزرت هوارد » E. Howard الذى يعتبر من أكبر المؤثرين فى هذا المجال • وهو ليس معاد للحضرية على نحو ما ينسب للمدن الكبرى كمدينة لندن ، ولكنه يهدف من تحليلاته الى أن يكشف فقط عن عيوب المدينة وفضائلها • ولقد كتب فى مؤلفه الذى نشر عام ١٩٤٦ حول مزايا وعيوب الحياة فى الريف والمدن كما وقف عليها ١٨٩٨ (١٦) • وفى الجزء الثالث من تقريره يقدم لنا تصوره لنمط جديد من المدن تنعدم فيه شرور آلام المدينة ، وتزداد فيه فضائل الحياة الريفية التى يجب أن يكتسبها ساكن المدينة وبالرغم من أن بعض الأشياء التى كانت محلا للنقد عنده فى المدن القديمة ليست لها أهمية فى عالم اليوم ، الا أن المجادلات التى بدأها بوضع مبادىء لنظريات حول تخطيط المدن لا تزال مؤثرة فى مجال أشكال النمو الحضرى • وربما كان الجزء الذى حظى بأكبر قدر من المناقشة فى نظريات المخططين الأوائل للمدن هو الاعتقاد بأن الانسان يمكن أن يتغـير بفعل بيئته • ولقد كانت النزعة المضادة للحضرية ذاتها مؤثرة الى حد كبير ولكن هذا التأثير قد اتخذ اتجاهات متعددة • فبينما نجد بعض المفكرين يرغبون فى تغيير الناس عن طريق توطينهم فى مدن أو قرى « نموذجية » ، فان البعض الآخر يرى أن تغيير الانسان يمكن أن يتحقق من خلال النهوض بالاحياء الفقيرة فى المدن من النواحى التعليمية والاجتماعية ، وأيضا عـــن طريق خلق مجتمعات محلية نموذجية • ولقد تركت هذه الأفكار تأثيرا فى

---

(١٦) Howard, E., Garden Cities of Tomorrow, Faber, 1946.

دوائر تخطيط المدن ، غير أنها لم تنجح فى ايجاد فهم عميق للمدن كمراكز للحياة المتحضرة • ويقول بال Pahl « اننا فى بريطانيا ، وهى اكثر بلدان العالم حضرية لا نعلم سوى القليل عن المدن والمراكز الحضرية المعاصرة، وقد يكون ذلك راجعا الى أنها لم تكتسب بعد تقبلا من الناس » (١٧) •

لقد عرضنا فى هذا الفصل لمجال علم الاجتماع الحضرى وعلاقته بالميادين الأخرى من الدراسات الحضرية ، كما أشرنا الى العوامل المختلفة التى تقوم عليها المناطق الحضرية كما يراها المفكرون الحضريون • وقد نوهنا بأهمية اعتبار علم الاجتماع الحضرى فرعا عالميا على درجة عظيمة من الأهمية فى الوقت الحاضر •

وسوف نقدم فى الفصل التالى مسحا للمناهج المختلفة المستخدمة فى دراسة الخصائص الاجتماعية للحياة الحضرية ، فضلا عن وضع صياغة للنظريات المتعددة فى علم الاجتماع الحضرى •

---

(١٧) Pahl, R.E., Readings in Urban Sociology, Pergamon, 1988.